المأساة اللبنـــانية

من يلبس نظارات القرون الخوالي وينظر الى جبل لبنان وجروده مدققاً الرؤية آخذا العبر، يرى بوضوح أن هذا الجبل كان في عهد الأمبراطورية السلطوية الإستبدادية ملاذاً للمضطهدين المتمردين الثوار، الذين إستعصوا على الذوبان في نسيج النظم الشمولية الإستبدادية التي تحتكر لنفسها الحقيقة قولاً وممارسةً وتفرض قيمها الثقافية والإجتماعية والدينية على الآخرين بالإكراه محاولة تجريدهم من أي خصوصية إختزنوها عبر التاريخ أو أي تواصل لهم بحضارات لا تعترف هذه السلطة الإستبدادية بحقها في التواجد على مسرح التاريخ والجغرافيا. إذن القصة في لبنان ومنذ مئات السنين كانت قصة الحرية والنزعة الإستقلالية والهوية الثقافية الحضارية المميزة. من يستعرض اليوم أسماء المدن والقرى على إمتداد الجغرافيا اللبنانية يجد أمامه وبمنتهى العفوية أسماء أغلبهاآرامي وسرياني. هذا لا يعني أن لبنان ليس بلداً عربي الوجه واليد واللسان، ولكنه يعني أننا أبناء حضارة عميقة هي بمثابة سلسلة العروبة إحدى حلقاتها الأساسية، ولكننا إذا أردنا أن نستكبر ونشيح بوجهنا عن الحقيقة، أن نمارس العنصرية العروبية على الطريقة النازية في تطهير العرق كما حصل مع مواطنينا الأكراد والسريان والكلدان واليزيديين نكون قد قطعنا هذه السلسلة الحضارية واكتفينا بحلقة واحدة، وهذا هو الفقر الحضاري بعينه. بل هذا هو الضرب بعرض الحائط بخصائص العقل الجمعي والتقاليد والعادات الموغلة في القدم والتي تشكل من حيث نرغب أو لا نرغب شخصيتنا الحضارية، بسلبياتها وإيجابياتها بأذواقها ولا شعورها وعقلها الباطني ونزعاتها ومكامن الإبداع فيها.

لماذا إذن لا نعترف بالحقيقة ونقول بكل بساطة أن لبنان ليس مسيحياً وليس إسلامياً ولكن المسيحية والإسلام قد يكونان أهم حلقتين في سلسلة وجوده الحضاري ولماذا بعدها لا نربط هاتين الحلقتين ببقية حلقات السلسلة إبتداءً من الحلقة الآرامية فالفينيقية فالإغريقية فالرومانية ونغتني بهذا الدفق الحضاري الخصب ونسكب كل ذلك في قوالب اللغة العربية التي يحدوها حادي التطور والإرتقاء لا حادي الجمود والإستنقاع وعبادة الصنم السلفي حرفاً كان أم أشخاص.

لماذا لا نـرى الوقائع كما هي ونحاورها لتكشف هـي لنا عــن طبيعتها لا أن نسقط عليها نحــن وبكل غطرسة وإستعـلاء أيدولوجياتنا وقراراتنا المسبقـة، لماذا لا نــرى لبنــان كمــا هــو بلداً متجذراً فــي الحرية والديموقراطية والتعددية وسط دولتين، واحــدة ترحب بتعدديته وترفض نزعته الــى الحريـة والديموقراطية وأخرى ترحب بديموقراطيته وترفض تجربــة تعدديته الدينية والثقافيــة والأتنية. لماذا لا نرى لبنان بجناحيــه المقيم والمغترب، فالمقيم تلفحه ريــاح الصحارى العربية بكل ما فيها مــن هجيــر ورياح سموم وسراب وتطرف في المسلكيات الدينية والدنيوية قد تكون سببه ذلك التباين المرعب بيــن درجة الحرارة فــي النهار ومثيلها فــي الليل. والمغترب تلفحــه رطوبــة المحيـط الأطلسي وحقائـق الثــورات الصناعيــة والتكنــولوجية والمعلوماتية ومبــادئ حقـوق الإنسان وإحترام الآخــر والتحاور معه ومحاولة فهم مسلكيته.

مسكين لبنان البعض يخاف من حريته حرية التعبير والتفكير حرية الإبداع والتطور فيحاول أن يخنــق كل ذلك كي لا ينكشف بتصنمه وإستنقاعه وعدائه لقوانين الطبيعة ومنطــق العقــل. والبعض يخــاف مــن ديموقراطيته لأنه يعتبـر الشرائع إسقاط من السماء الى الأرض لا صعود من قلب الأرض الى سطحها حسب مصالح الجماعات وإختباراتها وتطلعاتها. والبعض يخــاف مــن تعدديتــه، والتعدديــة تختــزن الحرية والديموقراطية والكونيــة، وهــو العنصري الفــاشي الذي يسعى للتطهير العرقــي والديني محتقراً الآخرين ومستعلياً عليهم وكأنــه هو الإنسان الكامل والآخرين سقط متــاع.

مسكين لبنــان بمغتربيه الذيـن نتنكر لهم فلا من رعاية ولا من بعثات ولا من قنوات تواصل وكأننا نقــول لهم مــن جمع منكم الملايين وأراد أن يعـود الى لبنان لصرفها وتبذيرها فأهلا وسهلا أنتم الرواد وأبنــاء الأرز الخالد وأولاد جبل الصوان. ومن لم يوفق في الجني والكسب فليستقر حيث هـو ولا حاجة لنا به لنتواصل معه أو ليحاول العـودة فمن عندنا مــن العاطلين عن العمــل والنازحيــن الهاربين من جـور الأنظمة المجاورة ومشاكلها الدينية والعرقية يكفينا.

مسكين لبنــان بمقيميه الذيـن نعلـّم شبابهم منفقين كل ثروتنـا القوميــة فـي سبيل ذلك لنعود ونقدمهم هدايا مجانية لأوروبا وأميركا بعد أن عجزنا عـن إعطائهم أية فرصة عمــل كريمة بعــد تخرجهم. والأدهى أننا نصدرهم محبطين ناقمين مصابي بالغثيان من هــول ما رأوه من صغائرنا وسخافاتنا وتنكرنا لمنطق العقل وتوجهات الحضارة الكونية التي أصبحت قاسماً مشتركاً عنــد جميـع الشعوب التــي تريــد أن يكــون لها مكان تحت شمس الحريــة والكرامــة والأنسنة.

كمال يوسف سري الدين

بزبدين- المتن الأعلى

٢٠٠٧-٢-١٢